

"الأقباط عنصر أساسى فى الأمة المصرية، لايمكن أن تقوم دراسة صحيحة عن مصر وشعبها دون دراسة للأقباط تاريخاً ولغةً وجنساً وأدباً وفناً"

لمثلث الرحمات المتنيح الأنبا يوانس أسقف الغربية

ومساهمة منا فى نشر الوعى بالتاريخ القبطى فأنا نقتبس من كتاب

حضارة مصر فى العصر القبطى

تأليف مراد كامل

اولاً : الحياة السياسية

دخلت المسيحية مصر فى منتصف القرن الأول الميلادى، فى وقت كانت فيه أفكار الناس حائرة مضطربة بين عشرات المعبودات التى قدمتها لهم الديانات المصرية واليونانية والرومانية بالإضافة إلى الديانة اليهودية وبعض الديانات الشرقية الأخرى. واستطاعت المسيحية أن تتغلغل فى روح المصرى، بقدر ما كان مستعداً لقبولها، بما ورثه من مهادت لذلك فى ديانته المصرية القديمة. وقد انتشرت المسيحية فى مصر انتشاراً سريعاً، واستمرت فى النمو حتى قضت نهائياً على الوثنية وانتصرت على اليهودية حتى لم يتبق من اليهود سوى طائفة ضئيلة لا أهمية لها.

ولم يتم هذا الانتشار بسهولة، وإنما تم بعد صراع جبار كان له ميدانان: أولهما الميدان الفكرى وقد قام بالدور الهام فيه مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وعلماء المسيحيين وفلاسفتهم. أما الميدان الآخر فكان ساحة الاستشهاد، وقد بدأ عملياً بهجوم الوثنيين سنة 68 م على كنيسة الأقباط شرقى الإسكندرية وقتلهم القديس مرقس الرسول بعد أن جرّوه بالحبال فى شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه. وكان النزاع فى أول صورته نزاعاً بين دينين: المسيحية والوثنية. ولكن ما أن نمت المسيحية فى مصر حتى أصبحت تمثل الشعب المصرى كله تقريباً، وظل الحكام الرومان يمثلون الديانة الوثنية، وظهر عندئذ بوضوح أن هذا النزاع كان فى نفس الوقت صراعاً بين شعب وحاكميه، أو بين أبناء وطن ومستعمره. وهكذا تركز الشعور القومى وتوحد. وأخذ أقباط مصر يتمسكون بقوميتهم كراهة فى كل ما هو أجنبى عنهم، فكان من نتائج ذلك فيما بعد ظهور الحركة الأدبية القبطية الخالصة التى قادها الأنبا شنوده (القرن الرابع الميلادى) لتنقية اللغة القبطية المصرية من الألفاظ اليونانية الدخيلة، ورفض أدبيات اليونان وثقافتهم. وقد بدأ هذا الصراع بين مصر والمسيحية وحكامها الرومان منذ القرن الأول الميلادى ولم ينته إلا بدخول العرب. وصار أباطرة الرومان أعداء سياسيين

للشعب المصري، كما كانوا له في نفس الوقت أعداء دينيين طوال العصر الروماني . واستحكم العداء حتى كان الأباطرة المسيحيون أنفسهم يميلون إلى المذهب المخالف لمذهب مسيحي مصر، وكما اضطهدت مصر على يد أباطرة الرومان الوثنيين اضطهاداً عنيفاً، كذلك اضطهدت بنفس العنف من أباطرة الرومان المسيحيين. ولا يستثنى من ذلك إلا عدد ضئيل جداً من هؤلاء الأباطرة كانت فترات حكمهم بمثابة هدنة سرعان ما تنتهي لتستأنف مصر صراعها مع الحكم الروماني من جديد.

ولكى نتضح لنا حلقات هذا النزاع يمكن أن نقسمه إلى ثلاث فترات مميزة

وهي:

- أ - فترة الصراع مع أباطرة الرومان الوثنيين إلى سنة 313 م.
- ب - فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين للهرطقة من سنة 313 إلى سنة 451 م.
- ج - فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا رومه من سنة 451 م - 641 م.

أ - الصراع مع الأباطرة الوثنيين

كان الأباطرة الوثنيون ينظرون إلى المسيحيين عامة كمصدر خطر عليهم، فاضطهدوهم وإنما وجدوا. ولكن الاضطهادات التي حلت بمسيحي مصر كانت أشنع قسوة وأكثر عدداً، لما أتصف به الأقباط من الصلابة والثبات على إيمانهم. وقد شعر الأباطرة وولاتهم أنهم أمام شعب شجاع متمسك بدينه، لا تثنيه الإغراءات وطرق الاستمالة المتنوعة، فاستخدموا معه كافة ألوان التعذيب الوحشية من حرق وجلد وصلب وسلخ ونشر ورجم وتقطيع أعضاء وتهشيم أسنان وضرب بالسيف وإلقاء إلى الوحوش المفترسة وسجن وغيرها مما لا يدخل تحت حصر من صنوف القسوة .

ومع ذلك لم تجد كل هذه الوسائل في إضعافهم، بل كان الناس يأتون من تلقاء أنفسهم إلى الولاة مجاهرين بمسيحيتهم، حتى أن الأنبا أنطونيوس الراهب الناسك المتوحد ترك وحدته وأتى إلى الإسكندرية وهو شيخ في حوالى السبعين من عمره لينال شرف الاستشهاد. وتطور الأمر بالولاة والأباطرة، فبعد أن كانوا يعمدون في قتل الأفراد أخذوا يبيدون قرى ومدناً بأسرها وصار عدد الشهداء يقدر بمئات الآلاف.

وأشهر الاضطهادات التي مرت بالمسيحية في مصر اضطهادات تراجان سنة 98 م، وسبتموس سيفروس سنة 193 م، ودكيوس سنة 249 م، وقاليريان سنة 254 م. ولكن أعنفها جميعاً كانت المذابح التي أنزلها ديوقليانوس بالمصريين وكأنه قد جعل هدفه أن يفنيهم إفناء. ولذلك فإن الكنيسة القبطية تجعل بدء تقويمها سنة 284 م. وهي السنة التي تولى فيها هذا الإمبراطور حكم الإمبراطورية الرومانية، ويسمى هذا التقويم بتقويم الشهداء.

وقد قتل في حركات الاضطهاد هذه بعض بطاركة الكنيسة القبطية وعدد وافر من أساقفتها ورهبانها وعلمائها، وتعطلت المدرسة اللاهوتية في الإسكندرية مدة من الزمن. وأحرقت الكنائس والكتب المقدسة، وفاضت الطرقات بالدماء. ومع ذلك صمد المصريون صموداً عنيماً ولم يرضخوا للأباطرة الرومانيين، بل كان عدد المؤمنين ينمو بإطراد، وكثيرون كانوا ينضمون إلى المسيحية متأثرين بشجاعة المسيحيين واستهانتهم بالموت في سبيل عقيدتهم.

ولما وجد الأباطرة أن كل هذه الاضطهادات لم تأت بنتيجة سوى زيادة قوة الكنيسة، وأن المسيحيين قد سرت فيهم موجة طاغية من " شهوة الاستشهاد " حتى كانوا يثيرون الولاة بتوبيخهم على وثنيهم ولعن أصنامهم لكي ينالوا إكليل الشهادة على أيديهم، نقول لما لمس الأباطرة ذلك يئسوا أخيراً واضطروا إلى وقف هذه المذابح البشرية لعدم جدواها، ولأنها خلقت عوامل خراب في أجزاء الإمبراطورية وأدت إلى تعطيل مصادر الإيراد من زراعة وصناعة وتدهور الحالة الاقتصادية وانتشار المجاعات والأوبئة.

والكنيسة القبطية تطلق لقب خاتم الشهداء على بطريركها الأنبا بطرس الأول، وكان السابع عشر في عداد البطاركة، ليس لأنه آخر شهيد مسيحي، وإنما لأن قتله كان ختاماً لحركات المذابح العامة التي استشهد فيها آلاف المسيحيين، ولأنه أيضاً كان آخر من استشهد من بطاركة الإسكندرية. ولما قبض على هذا البطريرك وطرح في السجن التف الشعب القبطي حول السجن ليمنع الجنود من إخراجهم ليقتل. ولكن البطريرك خاف على شعبه من أن يعمل فيه الجنود سيوفهم من أجل حماية شخصه فسلم نفسه سراً للجنود بأن طلب من القائد أن ينقب جدار السجن من جهة لا يحيط بها المسيحيون، فتم ذلك وسلم رأسه للجنود فقطعوه، وكان ذلك سنة 311 م. ولم يعلم الشعب المحاصر للسجن بقتل البطريرك إلا بعد إنصراف الجنود. في كل ذلك ضرب الشعب المصري وبطاركته أروع المثل في الاستشهاد.

وكان البطاركة وأساتذته المدرسة اللاهوتية يصدرون الرسائل والكتب حثاً للناس على الاستشهاد وتثبيتاً لهم في دينهم. وكان أفراد الشعب يشجعون بعضهم بعضاً في ساحات الاستشهاد، ويزورون المقبوض عليهم في السجون، ويقفون إلى جوارهم أثناء المحاكمات، ويحملون أجسادهم ليدفنوها، كل ذلك في غير خوف أو تردد.

وكان الشهداء أنفسهم يقابلون الموت في فرح. وكان الكثيرون منهم يترنمون في بهجة خلال إقامتهم في السجون أو أثناء سيرهم في الطريق إلى ساحة الاستشهاد. وأخيراً أوقف الأباطرة هذه المذابح، ولم يلبثوا أن اعترفوا بالأمر الواقع وأباحوا للمسيحيين حق ممارسة عباداتهم دون التعرض لهم. وقد قرر ذلك الإمبراطور قسطنطين وهو الذي اعتنق المسيحية، وفتح بابها أمام باقى الأباطرة. وهكذا انتهى على يديه عصر اضطهاد الوثنية للمسيحية. ولم تبق من الوثنية في مصر سوى قلة ضئيلة ذابت بمرور الزمن.

ب - الصراع مع الأباطرة المناصرين للهرطقة

هذه الفترة من تاريخ مصر هي فترة آلام ومجد، وجه فيها المصريون دفعة الفكر المسيحي وقادوا مسيحيي العالم في المعرفة اللاهوتية. وليس أدل على ذلك من أن قانون الإيمان المسيحي الذي تعترف به كل الكنائس المسيحية هو من وضع وصياغة أثناسيوس الإسكندري .

وفي خلال هذه الفترة وقف بطاركة الإسكندرية حفاظاً على الإيمان القويم، فقاوموا الهرطقات وهي الخرافات الدخيلة على الإيمان أو البدع الخارجة على الدين، وحرّموا الهرطقة من عضوية الكنيسة بعد أن أظهروا لهم وللعالَم فساد معتقداتهم .

واشتهر اسم الإسكندرية في العالم كله، واعترفت بها المجامع العالمية (المسكونية) كنيسة من الكنائس الخمس الكبرى وهي كنائس رومه والإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية وأورشليم. وإذا كانت لرومه أهميتها السياسية كعاصمة للإمبراطورية الغربية فإن الإسكندرية كانت أولى كنائس العالم في التعليم المسيحي وفهم الدين وشرح قواعده. وليس أدل على قوة الإسكندرية من أن بطاركتها حرّموا ثلاثة من بطاركة المدينة العظمى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية بعد أن أثبتوا عليهم أنهم مبتدعون في الدين وهرطقة. وهؤلاء البطاركة الذين حرّموا هم: مقدونيوس الذي حرّمه تيموثاوس، ونسطور الذي حرّمه كيرلس، وفلابيانوس الذي حرّمه ديسقورس. ووافقت المجامع على هذه الحروم، وصّدق عليها الأباطرة، كما حرّموا من قبل أريوس في مجمع نيقية. وكان لهم في المجامع المسكونية مركزهم البارز فكانوا إما رؤساءها وإما العنصر القوي الموجه لها. وقد أشتهر بطاركة الإسكندرية بشجاعتهم وثباتهم الوطيد على الإيمان. فبينما عصفت الأريوسية بكثير من أساقفة العالم الأقوياء حين ناصرها الأباطرة بقوتهم، وبينما رضخ لها بعض الأساقفة تحت ضغط التعذيب عن ضعف لا عن اقتناع، نرى أن أساقفة الإسكندرية لم يميلوا قيد أنملة عن الإيمان المستقيم متحمّلين النفي والعزل وألواناً شتى من الاضطهاد ووقفوا في وجه الأباطرة وقفات مجيدة مشرفة. ولولاهم لصار العالم كله أريوسياً فاسد العقيدة.

وهذه المقاومة التي ناوت بها مصر الأباطرة والولاة الرومان، لم تكن مجرد حركات فردية من البطاركة، وإنما كانت حركات شعبية شاملة يقوم فيها البطاركة بدور الزعامة، كما كانت أحياناً حركات شعبية محضة بعيدة عن تأثير البطاركة أو قيادتهم. كان الشعب المصري حريصاً أشد الحرص على إيمانه، يرفض تدخل الرومان في معتقداته. من أجل هذا استطاع أن يرغم الأباطرة أحياناً على الإذعان له، كما استطاع أن يحتل اضطهاداتهم في صبر ورجولة. وليس أدل على ذلك من أنه في حالة نفي البطريك أو عزله أو سجنه، كان الشعب بأسره – بدون بطريك – يقوم بثورات عنيفة أستطاعت في كثير من الأحيان أن ترغم الأباطرة على سحب أوامرهم والإذعان لقوة الشعب.

ومن المظاهر الواضحة في هذه الفترة أن الأباطرة كانوا كثيراً ما يعزلون البطريك المصري، ويعينون بطريكاً آخر في مكانه (كبادوكيا مثلاً) إيمانه مخالف لإيمان الشعب المصري، تحميه قوة مسلحة يستطيع بها أن يدخل

الإسكندرية عنوة، وأن يصلى فى الكنائس آمناً من أن يطرده منها الشعب، ثم يبدأ هذا البطريك الدخيل فى اضطهاد المصريين وقتل الكثيرين منهم ليتبوأ منصب البطريك المنفى. كل ذلك كان ولا شك يدفع بالمصريين إلى الشعور بقوميتهم المصرية وبأن الرومان عنصر أجنبي مستعمر يستخدم السيف لتحقيق أغراضه وأن البطارقة الدخلاء لا يختلفون فى شىء عن الجنود الرومان المغيرين المحتلين لبلادهم. لذلك كانوا يرفضون أن يعاملوهم كبطارقة، وقد أقدموا فعلاً فى إحدى الثورات على قتل أحدهم وهو جورجوس الكبادوكى.

هرطقة أريوس :

ظهرت هرطقة أريوس فى عهد الأنبا بطرس خاتم الشهداء، أى فى زمن ديوقليانوس الوثنى المضطهد. وقد حرم أريوس من الأنبا بطرس، ثم استشهد بطرس دون أن يعفو عنه، ولكن هذه الهرطقة لم تنل قوة ولا انتشاراً فى أيام الاستشهاد لانشغال الناس عنها بما هم فيه من ألوان العذاب البشعة. فلما استراحت المسيحية من الاضطهاد الوثنى التفتت إلى هذه الهرطقة وعملت على دحضها. فتجدد حرم أريوس مرة أخرى على يد الأنبا الكسندروس البطريك التاسع عشر من بطارقة الإسكندرية. ولكن أريوس استمر على عناده ولم يتخل عن هرطقته. وانضم إليه كثيرون من مصر وغيرها من البلاد المسيحية مما أدى إلى عقد مجمع نيقية المسكونى فى سنة 325 م بأمر الأمبراطور قسطنطين لمحاكمة أريوس وإرساء قواعد الإيمان.

وقد ضم هذا المجمع 318 أسقفاً من أساقفة العالم المسيحى، كان من أبرزهم الأنبا الكسندروس بطريك الإسكندرية وشماسه أثناسيوس الذى لم يكن يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره .

أثناسيوس وجهاده :

ولد أثناسيوس فى الإسكندرية سنة 296 م من أبوين وثنيين. وجمع بين الثقافة الوثنية بحكم مولده ودراساته الأولى، والثقافة المسيحية بحكم دراسته فى مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، وأضاف إليهما ثقافة نسكية روحية، إذ أنه تتلمذ ثلاث سنوات فى البرية على القديس الأنبا أنطونيوس وقد أختاره الأنبا الكسندروس البطريك تلميذاً له ورسمه شماساً واصطحبه فى سنة 325 م إلى مجمع نيقية. وفى مجمع نيقية بدأت شهرة أثناسيوس العالمية. واستطاع هذا الشماس الشاب أن يقف معلماً للإيمان وسط 318 أسقفاً يمثلون جميع كنائس العالم، وتمكن من تفنيد آراء أريوس فى براعة وإقناع وتولى بنفسه صياغة قانون الإيمان مدققاً فى اختيار عباراته كلمة كلمة، وأخذ مجمع نيقية بأقوال أثناسيوس، وحرم أريوس وعزله من عضوية الكنيسة، وأقر الإمبراطور هذا الحكم. وانفض المجمع بعد أن نظر فى أمور أخرى كانت معروضة عليه، وأصدر عشرين قانوناً كنسياً.

وهذه الزعامة الفكرية رفعت من شأن أثناسيوس فى العالم المسيحى، وأهلتها لأن يخلف الأنبا الكسندروس ويصير بطريركاً للإسكندرية سنة 326 م، غير أنها ألبت عليه حسد ومؤامرات الأريوسيين، وخاصة من كانوا من حاشية الإمبراطور، مما جعل حياة الأنبا أثناسيوس سلسلة من الجهاد والآلام فى سبيل الدفاع عن الإيمان المسيحى. وذلك لأن هرطقة أريوس لم تنته بقرارات مجمع نيقية. فقد بذل أريوس جهده حتى ضم إليه بعضاً من الأساقفة، وتظاهر بالتوبة وأقنع الإمبراطور قسطنطين بذلك فطلب من الأنبا إثناسيوس أن يقبل أريوس، ولكنه رفض طلب الإمبراطور. وهكذا بدأت أول حلقة من حلقات صراع مصر ضد أباطرة الرومان المسيحيين.

وقد أحتمل اثناسيوس فى سبيل ذلك النفى عن كرسية خمس مرات فى عهد كل من قسطنطين وقسطنطيوس ويوليانوس وفالنس. ووقف أمام كل هؤلاء الأباطرة كالصخرة الصلبة لا يلين. ولو لم يقف هذا الموقف الحازم لصار العالم كله أريوسياً. فلم يكن أثناسيوس زعيماً شعبياً فى مصر فحسب، يطيعه المصريون عن حب وثقة ويخضعون له، بل كان فوق ذلك ممثلاً للإيمان السليم فى العالم المسيحى كله، تنظر إليه كل الكنائس كمعلمها الأول.

وفى هذا الصراع الذى اجتازه أثناسيوس ضد أباطرة الرومان كان الشعب المصرى كله يؤيده. وقد دلت الحوادث على أن الأمر لم يكن عملاً فردياً من جانب البطريرك وإنما كان عملاً جماعياً صادراً من الأمة كلها. فلما رفض البطريرك قبول أريوس، أمر قسطنطين بنفيه عن كرسية، وأدى ذلك إلى قيام ثورة شعبية فى مصر بقيادة فيلومينوس، واتهم اثناسيوس بأنه كان السبب فيها.

وبعد موت قسطنطين خلفه قسطنطيوس فى حكم الشرق، وكان أريوسياً. فعين بطريركاً أريوسياً على الكرسي الإسكندرى بدلاً من اثناسيوس وأسمه جريجورى. ولما لم يسمح له الشعب بدخول الإسكندرية، زوده الإمبراطور بقوة عسكرية استطاع بها دخول المدينة، واستمرت هذه القوة معه لحمايته خوفاً عليه من حركات الشعب. فعقدت كنيسة الإسكندرية مجعماً ضده من الأساقفة المصريين، فتدخل سيريانوس قائد الحامية – وكان أريوسياً – وعمل على فض المجمع متوعداً بتدمير المدينة كلها. حينئذ انسحب اثناسيوس وهرب إلى رومه، فارتجت المدينة لهذا البطل المصرى ذى المظهر البسيط الفقير. وانعقد مجمع فى رومه أقر براءة أثناسيوس ووجوب رجوعه إلى كرسية، كما انعقد مجمع آخر فى سرديكيا سنة 343 م من مائتى أسقف حكم بشرعية رئاسة أثناسيوس لكرسي الإسكندرية. وكتب قسطنس إمبراطور الغرب إلى أخيه قسطنطيوس، إمبراطور الشرق، ليطلب منه إرجاع أثناسيوس، وقد كان هدف أثناسيوس هو توحيد العالم المسيحى ضد الأريوسية بعد أن عاضدها الإمبراطور، واستطاع بقوته وتأثيره أن ينال تأييد العالم المسيحى. أما فى مصر فكان الشعب فى اضطرابات مستمرة طيلة مدة غيابه عنهم، حتى أنهم طردوا من الأديرة جميع الذين اعتنقوا المذهب الأريوسى وحطموا كنيسة الإسكندرية التى كان الأريوسيون قد استولوا عليها. وخاف الإمبراطور من اندلاع حرب بينه وبين أخيه فكتب إلى أثناسيوس سنة 346 م ثلاث رسائل متتالية يطلب إليه فى احترام ولباقة أن يرجع إلى

كرسيه. فرجع الأنبا أثناسيوس إلى مصر واستقبله الشعب إستقبالاً عظيماً لم يحظ بمثله الأباطرة.

ولما كان الإمبراطور لم يرجع أثناسيوس إلا بدافع الخوف، فإنه ما كاد يتوفى أخوه قسطنس حتى عاد إلى اضطهاد أثناسيوس وأمر بطرده من مصر. وعطل أثناسيوس هذا الأمر عاماً كاملاً دون أن ينفذه حتى تقدم القائد سريانوس على رأس قوة كبيرة بأمر الإمبراطور واقتحم الكنيسة التي كان يصلى فيها أثناسيوس. وعندما التف الشعب المصرى حول زعيمة وراعيه أعمل الجند سيوفهم فى الشعب أما الأنبا أثناسيوس فقد حمله بعض الرهبان وخرجوا به من الكنيسة، وفتح الشعب أبواب بيوته لإخفائه. وأرسل الإمبراطور رسله إلى مصر يحملون الأوامر بضرورة إحضار أثناسيوس حياً أو ميتاً، لكنهم لم يستطيعوا العثور عليه.

وعقد الإمبراطور مجمعاً فى ميلان سنة 355 م ضد الأنبا أثناسيوس، وكانت غالبية أعضاء هذا المجمع من الأريوسيين، وتنفيذاً لرغبة الإمبراطور قرر المجمع عزل أثناسيوس، فاحتج على ذلك أصدقاؤه من أساقفة الغرب.

وتلا ذلك تعيين جورجىوس الكبادوكى بطريكاً على الإسكندرية بوساطة الأريوسيين نوى الحظوة لدى الإمبراطور، ثم اتخاذ إجراءات تعسفية ضد الأقباط أتباع أثناسيوس. فقد أستخدم جورجىوس القوة العسكرية لإرغام الشعب على قبول المذهب الأريوسى، فلما رفض، أعمل فيه القتل وشرذ الكثيرين من الأساقفة المصريين، وزج باثنى عشر منهم فى السجون، واقترح على الإمبراطور فرض ضريبة جديدة على المنازل فى الإسكندرية.

وفى عهد الإمبراطور يولييانوس (361 – 363) الذى ارتد عن المسيحية إلى الوثنية قام الشعب بثورة عنيفة أدت إلى قتل جورجىوس البطريرك الدخيل، وعاد أثناسيوس إلى كرسيه. ولكن هذا الإمبراطور أيضاً أمر بطرده من الإسكندرية على اعتبار أنه ما يزال منفيماً وأنه عاد بدون إذن، وكتب إلى والى الإسكندرية مهديداً إياه بفرض غرامة كبيرة عليه وعلى موظفيه إذا ظهر أثناسيوس فى أرض مصر كلها. ولكن أثناسيوس اختبأ فى قبر أبيه ستة أشهر ولم يغادر المدينة.

ولما تولى الإمبراطور فالنس (364 – 378) وكان أريوسياً، أمر بنفى أثناسيوس مرة أخرى. فرفض الشعب القبطى تنفيذ الأمر ولو أدى إلى إستشهادهم جميعاً. وقامت ثورة عنيفة فى مصر، واضطر الإمبراطور إلى الإذعان لرغبات الشعب.

وقضى أثناسيوس السنوات السبع الباقية من حياته فى سلام حتى توفى سنة 373 م بعد أن أحتمل الكثير من اضطهاد الأباطرة ومناصرتهم للأريوسية، دون أن يخضع أو يلين فى سبيل المحافظة على الإيمان المسيحى فى العالم كله وصونه من الانحراف. وفى خلال هذه الاضطهادات التى نزلت به اختبأ فى مغارات الرهبان فى الجبال وفى أديرتهم فى الصحراء وفى بيوت المؤمنين فى الإسكندرية ومرة فى قبر أبيه ومرة أخرى فى بئر جافة. وكان خلال فترات إختفائه يعمل باستمرار، فقد كتب كثيراً من المقالات اللاهوتية للرد على الهرطقة والدفاع عن موقفه وعن مجمع نيقية،

كما كتب رسائل تشجيع للمؤمنيين وللرهبان، وبفضل كل ذلك استطاع أن يؤلب العالم أجمع ضد الأباطرة.

واستمر الإمبراطور فالنس في اضطهاده للمصريين بعد وفاة الأنبا أثناسيوس، فنفى خليفته الأنبا بطرس الثاني (373 – 380)، وعين بدلاً منه لوكيوس الأريوسى وأيده بقوات الإمبراطورية. وأصدر فالنس قانوناً جديداً عمل على تنفيذه بالقوة، وكان يقضى بإلغاء امتياز الإعفاء من الخدمة العسكرية الذى كان ممنوحاً فيما مضى للرهبان وكذلك لسكان بعض المدن والمقاطعات التابعة للأديرة مثل الفيوم، وإرغام كل هؤلاء على الإنخراط فى الخدمة العسكرية بالقوة. وقد فضل كثير من هؤلاء المصريين أن يلقوا حتفهم وهم يقاومون الإمبراطور على أن يدخلوا فى خدمة قوات الإمبراطور.

فترة هدوء :

ومضت الاضطهادات العنيفة التى أنزلها الأباطرة الرومان بمصر وتحملها المصريون فى شجاعة وصبر إبان عهدى البطريركين الأنبا أثناسيوس والأنبا بطرس الثانى. ثم أن لمصر أن تتمتع بفترة هدوء عندما مات الإمبراطور فالنس الأريوسى وتولى العرش الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (من 378 – 395 م) وهو الذى اعترف بالديانة المسيحية ديانة رسمية للدولة. وساعد هذا القرار على إضعاف الوثنية، فأمكن تحويل الكثير من معابدها إلى كنائس. وقد أرجع هذا الإمبراطور الأنبا بطرس الثانى من منفاه، ولما توفى هذا البطريرك سنة 380 م اختار الشعب بعده الأنبا تيموثاوس بطريركاً. وفى عهده وقع مقدونيوس أسقف القسطنطينية فى هرطقة حول الروح القدس، فاجتمع سنة 380 م مجمع فى القسطنطينية من مائة وخمسين أسقفاً وقرر حرمة وحرمة هرطقته. وقد حضر الأنبا تيموثاوس هذا المجمع، وقام فيه بدور رئيسى.

ثم خلفه فى البطريركية الأنبا ثيوفيلوس (سنة 385 – سنة 412 م) ، وكان عهده عهد سلام وعمران، سواء فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس، أو خليفته أركادىوس (سنة 395 – سنة 408 م) .

الأنبا كيرلس وبدعة نسطور :

ثم خلف هذين الإمبراطورين ثيودوسيوس الصغير (الثانى)، وكان مؤمناً صالحاً تولى الحكم وهو صغير السن وحكم من سنة 408 م إلى سنة 450 م وكان محباً للكنيسة ولرهبان الأقباط، يرسل إليهم ليتبرك بهم ويستشيرهم فى كثير من أموره الخاصة. وقد تمتع فى عهده الأنبا كيرلس الكبير بحرية واسعة فى التصرف، حتى قيل أن بطاركة الإسكندرية فى تلك الفترة من التاريخ كانوا هم الذين يتحكمون فى تاريخ مصر، بل أطلق البعض على هذا البطريرك " فرعون مصر " .

وكان القديس كيرلس هذا خليفة للقديس أثناسيوس فى المعرفة اللاهوتية وقيادة الفكر المسيحى. اعتلى كرسى البطريركية سنة 412 م فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الصغير وتمتع فى عهده بشبه استقلال فى مصر، ودافع عن الإيمان المسيحى. فبدأ بكتابة خطاب إلى الإمبراطور ومنحه فيه البركة، وشرح له الإيمان السليم، ورد على الكتب التى كان قد وضعها قبلاً الإمبراطور يوليانوس ضد المسيحية.

ولما لاحظ الأنبا كيرلس أن نسطور بطريرك القسطنطينية قد وقع فى هرطقة لاهوتية أرسل إليه يتفاهم معه. لكن نسطور تمسك برأيه ورفض الإذعان لتعليم كيرلس. واستمال إلى جانبه يوحنا أسقف إنطاكية، واعتمد على ما لقيه من عطف الإمبراطور الصغير، ثم تحدى كيرلس علانية واتهمه بأنه عنيد وبأنه يقوم فى مصر بدور فرعون.

ولم يجد القديس كيرلس مناصاً من أن يستخدم سلطته كمعلم أول فى الكنيسة، فكتب إلى أساقفة العالم يشرح هرطقة نسطور، كما كتب إلى الإمبراطور ثيودوسيوس وأمه وإخوته، وبعث برسالة إلى نسطور نفسه يشرح له فيها قواعد الإيمان وما يترتب على مخالفتها من جزاء.

وانتهى الأمر بعقد مجمع مسكونى فى أفسوس حضره مائتان من أساقفة العالم. وكان مندوب الإمبراطور فى المجمع نسطورياً وهو كانديديانوس. وقد عمل نسطور على تهديد الآباء المجتمعين فى أفسوس بأن دخل المدينة محاطاً بفرقة مدججة بالسلاح، ورفض حضور جلسات المجمع على الرغم من استدعاء الآباء له أكثر من مرة. وإزاء ذلك اضطر المجمع إلى الاجتماع بدونه. وبعد قراءة رسالة القديس كيرلس، حكم المجمع بخلع نسطور عن كرسيه وتجريده من رتبته الكهنوتية. وقد وافق الإمبراطور على خلع نسطور بمجرد وصول القرارات إليه.

وعندما أقام الآباء أسقفاً جديداً على القسطنطينية، أرسل إلى القديس كيرلس خطاباً يقوله له: " إن رغباتك فى إعلان الحق قد تحققت يا خادم الله... " وكذلك أرسل أسقف رومه إلى القديس كيرلس يهنئه بقوله: " هنيئاً لك ، فأنت الرجل الجرىء المستهين بكل خطر ".

ويقول المؤرخ ستانلى فى كتابه: " محاضرات فى تاريخ الكنيسة الشرقية " ما نصه " لقد أصبح البطريرك السكندرى بعد مجمع أفسوس قاضى العالم، تطاع أحكامه فى جميع أنحاء العالم المسيحى ". وقد خلف كيرلس أيضاً كتباً كثيرة قيمة فى اللاهوت وفى تفسير الكتاب المقدس.

ج - الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا رومة

وعندما أرتقى مرقيانوس (سنة 450 – سنة 457 م) العرش أخذت العلاقات بين مصر وأباطرة الدولة الرومانية تدخل فى أعنف وأقسى صورها، فاجتازت مصر

طوال الفترة الباقية من حكم الرومان، محتملة اضطهاداً مرأً عنيفاً لم يتخله سوى هدنة قصيرة فى عهد الملكين زنون وأنسطاسيوس (474 – 518 م) .

وقد بدأت هذه الفترة بخلاف بين كنيسة رومه والإسكندرية أدى إلى إنقسام استمر من سنة 451 حتى يومنا هذا. وعرف أتباع كنيسة رومة باسم " الكاثوليك " بينما عرف أتباع كنيسة الإسكندرية ومن سار على نهجهم باسم " الأرثوذكس " ويتبعهم أيضا السريان الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم " اليعاقبة " .

ولما رفض الأنبا ديسقورس بطريرك الإسكندرية الموافقة على مسائل إيمانية أوردتها لاون أسقف رومه حول طبيعة المسيح، استخدم لاون نفوذ الإمبراطور فى نفي ديسقورس عن كرسيه وفى محاولة إرغام المصريين على قبول ما رفضه بطريركهم وحرمان كل من لا يوافق على مقالته حول طبيعة المسيح. وتعرض المصريون من أجل الثبات على إيمانهم لمذابح مروعة وخاضوا حركة استشهاد جديدة كالحركة التى خاضوها فى عهد أباطرة الرومان الوثنيين، بل إن عدد الذين استشهدوا منهم على أيدي المسيحيين، من أتباع مذهب الطبيعتين المخالف لمذهبهم، قد يزيد بكثير على عدد الذين استشهدوا على أيدي الوثنيين.

وكان الملك كلما اختار الشعب المصرى بطريركاً قبطياً، أمر بعزله عن منصبه، فينفي من مصر أو يهرب مختفياً فى أرجائها، ويعين بدلاً منه بطريرك ملكى من أتباع مذهب الطبيعتين، وينصب هذا البطريرك الدخيل بالقوة أملاً فى إرغام الأقباط على قبول مذهب غير مذهبهم، فإذا رفضوا هذا البطريرك الدخيل ومذهبه أعمل الإمبراطور فيهم القتل والسجن وكافة أنواع الاضطهاد.

ولكى يزداد الاضطهاد بشاعة لجأ الأباطرة منذ عهد يوستينيانوس إلى جعل البطريرك الملكى يجمع أيضاً إلى وظيفته الكهنوتية منصب الوالى المدنى لتجتمع لديه السلطتان معاً، ولما كانت جميع كنائس الإسكندرية فى أيدي هؤلاء الدخلاء فإنهم أستطاعوا أن يطردوا منها جميع البطارقة والأساقفة الأقباط وأن لا يمكنوهم حتى من دخول مدينة الإسكندرية، ولما كانت فى أيديهم القوة العسكرية أيضاً فإنهم استخدموها فى اضطهاد الأقباط كما يشاءون. وقد استمرت هذه الحال حتى دخول العرب مصر، فكان البطريرك القبطى الأنبا بنيامين هارباً من الرومان مختفياً فى البلاد والأديرة المصرية، بينما كان المقوقس يجمع بين وظيفتى الوالى الرومانى والبطريرك الملكى ويضطهد المصريين.

وأمام كل هذه الأوضاع الشاذة التى اختلط فيها الإستعمار السياسى بالاستعمار الدينى وقف الشعب المصرى صامداً لا يلين، يرفض كل بطريرك، متحملاً فى سبيل ذلك صنوف العذاب، ويرفض كل معتقد يخالف إيمان كنيسته القبطية، ويؤيد بطريركه القبطى ويطيعه وهو غائب عن كرسيه مشرداً فى أرجاء القطر أو متنكراً فى مكان ما. وكذلك أظهر البطارقة شجاعة عجيبة وصبراً وإحتمالاً، كلما اضطهدوا انتقلوا من مكان إلى مكان يثبتون الأقباط فى إيمانهم ويشجعونهم على الصمود أمام عنف العدو المستعمر.

فعل الأقباط هذا بينما خارت قوى غالبية اسقفيات العالم المسيحى، واضطرت إلى الخضوع لسيطرة أباطرة الرومان وبابوات رومه. ولم تقف إلى جوار الإسكندرية

غير أسقفية أنطاكية التي لاقت صورة مشابهة من الاضطهاد فتحمل أساقفتها العزل والنفى، وتحمل شعبها القتل والاضطهاد في سبيل الإيمان الواحد الذي دافع عنه ديسقورس الإسكندري.

بدء إنقسام الكنيسة :

لما قامت هرطقة أوطاخي، انعقد بسببها في أفسوس سنة 449 م مجمع، سمي مجمع أفسوس الثاني وكان رئيسه الأنبا ديسقورس بطريرك الإسكندرية. ولما مثل أوطاخي أمام هذا المجمع وسأله الأنبا ديسقورس عن إيمانه، أنكر هرطقته إنكاراً باتاً، وقدم إيمانه مكتوباً يوافق ما أمر به الآباء، ولما نوقش شفاها أجاب بنفس الكلام أيضاً، فعرض الأنبا ديسقورس أمر أوطاخي على آباء المجمع، فقرروا براءته مما نسب إليه، وقبوله في الكنيسة هو ورهبان ديريه الذين ناب أحدهم عنهم في إثبات صحة إيمانهم. كما قرر هذا المجمع أيضاً حرم فلابيانوس أسقف القسطنطينية لثبوت تهم قدمت ضده.

ثم حدث أن دعا لاون أسقف رومه سنة 451 م إلى عقد مجمع مسكوني ودعا إليه ديسقورس، وكان ديسقورس يرى ألا داعي لعقد مجمع جديد لأن الكنيسة كانت في سلام من جهة الإيمان. ولكن الظاهر أن لاون أسقف رومه ملكه الحسد والغيرة من بطاركة الإسكندرية، ودفعه ذلك إلا أن أتهمهم بأنهم لا هم لهم سوى عقد المجمع والترأس عليها، فأراد في هذا المجمع الجديد أن يدبر مكيده للتخلص من ديسقورس. ولما وصل ديسقورس إلى القسطنطينية حيث كان المجمع مزماً أن ينعقد، دهش من وجود بعض من أساقفة النساطرة المحرومين مجتمعين مع الآباء فأمر بطردهم، ثم قرئت على المجتمعين رسالة من بابا رومه، فلما سمعها ديسقورس أخذ عليه وقوعه في هرطقة الطبيعتين بينما قررت أقوال الآباء صحة مذهب الطبيعة الواحدة. ووقف وسط الأساقفة يشرح هذه المسألة في قوة وإقناع حتى صاح الجميع " نحن على إيمان ديسقورس ". ولما رأى الإمبراطور مركيانوس ذلك - وكان حاضراً الاجتماع - أوعز إلى اتباع لاون بأن يؤجلوا جلسة المجمع إلى اجتماع آخر.

وفي خلال ذلك دعا ديسقورس إلى اجتماع خاص في قصر الإمبراطور، ولما أصر على إيمانه، وعلى حرمة للأسقف لاون المنادى بمذهب الطبيعتين، اعتدى عليه وسجن، وانعقد المجمع في خلدونية بآسيا الصغرى سنة 451 م، وتحت تهديد القوة بدأ الضغط على الأساقفة حتى قرروا : عقيدة الطبيعتين، وعزل ديسقورس، واتهامه بالأوطاخية لتبرئته أوطاخي، الذي كان قد رجع مرة أخرى إلى هرطقته، وأثبت بذلك أن توبته الأولى أمام ديسقورس في مجمع أفسس الثاني توبة زائفة، كما حكم المجمع أيضاً بتبرئة لاون أسقف رومه. ولما عرضت قرارات المجمع على ديسقورس، حرم أعضاء مجمع خلدونية كلهم، بسبب انحراف الإيمان الذي وافقوا عليه. فنفى ديسقورس إلى جزيرة غاغرا. وأرسل المجمع الخلدوني إلى أساقفة الكرسي الإسكندري يدعوهم للإيمان بمذهب الطبيعتين فرفضوا وقرروا عدم الاعتراف بمجمع خلدونية، فبدأ الإمبراطور باستخدام القوة لإرغام رجال الدين

وأفراد الشعب على قبول مذهب لاون والاعتراف بقرارات مجمع خلقدونية، فلما رفضوا الأمرين قامت مذابح في الإسكندرية وفي الأديرة قتل بسببها شعب كثير، وانقسمت المسيحية إلى مذهبين، ومع أن ديسقورس وقف وحده وخاف الأساقفة من الإنضمام إليه بعدما رأوا ما فعلته القوة به وبشعبه، إلا أن ثورات شعبية أخرى قامت في أورشليم وبلاد أنطاكية احتجاجاً على قرارات مجمع خلقدونية، فاستخدمت القوة ضدهم أيضاً وأسشهد منهم عدد كبير.

وظل ديسقورس في منفاه حتى توفي سنة 457 م. وكان أصحاب مذهب الطبيعتين قد عينوا مكانه بطريركاً من مذهبهم إسمه بروتوريوس، فرفضه الشعب المصرى وطرده من البطريركية، حتى اضطر إلى الإستعانة بالقوة المسلحة للتمكن من دخول الكنيسة. وإذ أعرض الشعب عنه وبدأ يترك الكنيسة له ولمن يناصره من جنود الرومان، أمر الجنود فأعملت فيهم السيوف فقتل في ذلك اليوم عدد وفير، كما قتل كثير من الرهبان. وأحاط الحراس بهذا البطريرك الدخيل، واتخذت بعض إجراءات مدنية، كإيقاف الألعاب الرياضية وغلق الحمامات العامة وتهديد الشعب بسحب امدادات القمح.

ولكن الشعب المصرى ظل متمسكاً ببطريركه المنفى إلى أن توفي في منفاه سنة 457 م. ولم تدم بطريركية بروتوريوس المكروهة أكثر من هذا التاريخ لأن الشعب السكندري انتهز فرصة استدعاء قائد الحامية الرومانية إلى مصر العليا في عهد الإمبراطور ليون الأول (سنة 457 – 474 م) وقام بثورة عنيفة تخلصوا فيها من بروتوريوس واختاروا راهباً قبطياً أقاموه بطريركاً باسم تيموثاوس الثانى. ولكن الإمبراطور تحدى الأقباط وعزل الأنبا تيموثاوس الذى اختاره الشعب ونفاه كسلفه ديسقورس، إلى جزيرة غاغرا، وعين مكانه بطريركاً من مذهب الطبيعتين اسمه سالوفاسيولس. وكان السبب فى ذلك هو أن الأنبا تيموثاوس الثانى جمع سينودا من أساقفته فى الكرسى الإسكندرى سنة 458 م وأصدر قراراً بحرم مجمع خلقدونية. فاضطر ليون الأول أن ينفية واستمر سبع سنوات فى منفاه إلى أن مات هذا الإمبراطور فرجع البطريرك الإسكندرى إلى كرسيه.

فترة هدوء :

ثم تمتعت الكنيسة بفترة هدوء خلال حكم زينون (474 – 491 م). واستطاع البطريرك القبطى الأنبا تيموثاوس بعد عودته من منفاه أن يعقد مجمعاً فى القسطنطينية كان من بين أعضائه بطرس القصار بطريرك أنطاكية وقرر رفض المجمع الخلقدونى ورسالة لاون أسقف رومه. كما وزع منشوراً بذلك وبرفض عقيدة أوطاخى ووجوب التمسك بمذهب الطبيعة الواحدة. ولذلك فإن المؤرخ الكاثوليكي فلاديمير يقول فى كتابه عن التاريخ الكنسى أن " تيموثاوس الذى وضع هذا المنشور لم يكن أوطاخيا " .

ولما توفي الأنبا تيموثاوس الثانى، خلفه الأنبا بطرس الثالث (480 – 488 م)، وتمتعت الكنيسة بسلام فى عهده أيضاً، وبذلت محاولات للتقريب بين كنيستى

الإسكندرية والقسطنطينية، وعقد من أجل ذلك مجمع فى القسطنطينية سنة 481 م انتصرت فيه الآراء القويمة التى تمسكت بها الكنيسة المصرية. وأصدر المجتمعون مرسوماً أسموه " كتاب الاتحاد " صدق عليه الملك زينون. ولكن الإسكندرية اشترطت على أساقفة القسطنطينية رفض قرارات مجمع خلقدونية صراحة. وتبذلت رسائل بين أكاكيوس بطريرك القسطنطينية وبين بطرس الثالث الإسكندرى، رفض فيها أكاكيوس مجمع خلقدونية وسماه " مجمع المخالفين "، كما رفض رسالة لاون وآراء نسطور. فقبله بطرس الثالث، فلم يرق هذا لبعض أساقفة الكرسى الإسكندرى واحتجوا على بطريركهم قائلين له " كيف قبلت أكاكيوس الذى حضر مجمع خلقدونية ووافق عليه ؟ " فرد عليهم بقوله " إنما قبلته لرجوعه عن ذلك الرأى ". ولكن الظاهر أن هذا الأمر كان انضماماً وقتياً إلى مذهب الطبيعة الواحدة فى عهد ملك أرثوذكسى مثل زينون، لأنه بمجرد موت زينون عاد اضطهاد مذهب الطبيعة الواحدة وعادت كنيسة القسطنطينية إلى التمسك بقرارات مجمع خلقدونية، وفى الواقع أن كنيسة الإسكندرية كانت صامدة فى موقفها ثابتة على الإيمان لا تزحزحها عنه الاضطهادات، ولم تثبت معها فى ذلك سوى كنيسة أنطاكية.

وقد أستمرت فترات الهدوء أيضاً خلال حكم انسطاسيوس (491 – 518 م)، وفى هذا العهد توطدت أواصر التعاون بين كنيستى الإسكندرية وأنطاكية لاتفاقهما فى الإيمان الواحد .

عودة الاضطهادات

ولما تولى الحكم الإمبراطور يوستينوس الأول (518 – 527 م) وكان على كرسى الإسكندرية البطريرك تيموثاوس الثالث (517 – 535 م)، حاول هذا الإمبراطور إرغام كنيستى الإسكندرية وأنطاكية على قبول معتقد مجمع خلقدونية. فلما رفض ساويرس بطريرك أنطاكية نفاه عن كرسية فجاى إلى مصر، وظل فيها هارباً ينتقل من مدينة إلى مدينة ومن دير إلى دير محاطاً بمحبة المصريين الذين قبلوه كزعيم معلم فى الكنيسة، وظل هو من جانبه يشجعهم ويثبتهم فى الإيمان. كما أخذ هذا الإمبراطور يضطهد الأنبا تيموثاوس بطريرك الإسكندرية وأمر بنفيه، وجرت بسبب ذلك مذبحه هائلة قتل فيها نحو مائتى ألف نفس من الأقباط أرادوا حماية بطريركهم من الجنود الرومانيين الذين تمكنوا على الرغم من ذلك من القبض عليه وتم نفيه، وبقي فى منفاه ثلاث سنوات رجع بعدها إلى مركزه، واستمر مدافعاً عن الإيمان بالاشتراك مع ساويرس بطريرك أنطاكية حتى توفى سنة 535 ميلادية فى عهد الإمبراطور يوستينيانوس الأول.

وخلفه على كرسى الإسكندرية الأنبا ثينودوسيوس الأول (535 – 567 م) . وقد عرض عليه الإمبراطور أن يقبل رسالة لاون ويساعده على نشرها فى مقابل أن تكون له الرئاسة (البطريركية والولاية) ويكون جميع أساقفة أفريقية تحت طاعته. فرفض ذلك وقال لرسول الإمبراطور " ليس للملك سلطان إلا على جسدى... فمهما أردتم فافعلوه وأما أنا فأتبع إيمانى أبائى "، وترك كرسية حسب أوامر الإمبراطور فى

حالة الرفض وذهب إلى الصعيد، فحاول الإمبراطور ملاطفته وإغراءه فلم يلن البطريرك فنفاه، وأرسل بدلاً منه بولس التنيسى ليكون بطريركاً على الإسكندرية وقام برسامته مينا بطريرك القسطنطينية. فلما وصل هذا البطريرك الدخيل إلى الإسكندرية لم يقبله أحد وكانوا يسمونه "يهودا الخائن"، ولم يقبل أحد أن يصلى معه. فأرسل إلى الإمبراطور يخبره بذلك فأمره بغلق الكنائس لمدة سنة ولم يجد الشعب المصرى مكاناً للصلاة فبنوا كنيسة سرّاً في المكان المعروف باسم السوارى غربى الإسكندرية. ولم تنق للبطريرك القبطى المنفى سوى هاتين الكنيسةين لأن الإمبراطور أمر بالأيدخل كنائس الإسكندرية إلى أتباع البطريرك الدخيل، وأقام الأنبا ثينودوسيوس باقى حياته فى المنفى.

وقد خطا يوستينيانوس خطوة أوسع فى اضطهاد المصريين وإرغامهم على قبول مذهب الطبيعتين، فبعد وفاة بولس التنيسى عين من قبله أبوليناروس بطريركاً على الإسكندرية وحاكماً لها فى نفس الوقت. وقصد من ذلك أن يجعل فى يد الرئيس الدينى القوة العسكرية التى تمكنه من تنفيذ أوامره. وقد بدأ هذا البطريرك الدخيل عهده بمذبحة كبرى قتل فيها عدد كبير من أفراد الشعب الذين رفضوا اتباع عقيدته، وحاولوا رجمه فى الكنيسة حين وقف ليخاطبهم. وبهذه المذبحة تمكن من التخلص من أعنف العناصر المعارضة. وهذا العمل لم يجعل من هذا البطريرك الدخيل سوى حاكم مدنى، لأنه لم يتمكن من ممارسة شىء من السلطة الدينية التى ظلت فى يد البطريرك الشرعى الذى اختاره الشعب. ولكن أساقفة الأقباط لم يستطيعوا على الرغم من ذلك أن يظهرُوا فى الإسكندرية.

ولذلك فعندما رسم البطريرك القبطى الأنبا بطرس الرابع سنة 567 م بعد وفاة سلفه ثينودوسيوس، أقام فى كنيسة تبعد عن الإسكندرية بمقدار تسعة أميال ثم اختفى فى دير تابور بالقرب من الإسكندرية متكرراً فى درجة أسقف لا بطريرك، ودبر أمور الشعب من هناك. ولما سمع بذلك أهالى أنطاكية قلدوا كنيسة الإسكندرية، فرسموا لهم بطريركاً بعد وفاة القديس ساويرس أسموه ثيوفانوس أقام مختفياً فى دير أمونبوس لأن أصحاب الطبيعتين هناك منعوا الأساقفة الأرثوذكس من دخول مدينة أنطاكية متبعين معهم نفس السياسة التى قامت فى الإسكندرية.

ثم قام البطريرك الأنبا داميانوس الإسكندرى وخلف بطرس الرابع سنة 569 م وأقام مدة رئاسته التى بلغت ستاً وثلاثين سنة مختفياً فى دير تابور أيضاً فى درجة أسقف.

ثم تولى البطريركية أنسطاسيوس سنة 605 م وزاد اضطهاد الرومان للأقباط حتى أن الرومان حرّموا على الأقباط دخول الكنيسة اللتين بنوهما سرّاً غربى الإسكندرية.

ثم تولى البطريركية الأنبا أندرونيقوس سنة 616 م واستطاع أن يقيم فى الإسكندرية معتمداً على قوة أسرته التى كانت غنية جداً وتتولى بعض المناصب الإدارية الكبيرة فى المدينة. ولم تستطع قوة الرومان أن تخرجه منها. ولعل السبب فى ذلك هو أن الدولة الرومانية كانت وقتذاك فى حالة يرثى لها، إذا اجتاحت جيوش الفرس كثيراً من أراضيها. ولما ازداد ضغط الجيوش الفارسية على الحدود الشرقية

للإمبراطورية هاجر كثير من أهالي سوريا وفلسطين لاجئين إلى مصر، وعجز يوحنا البطريرك الملكاني عن إعالتهم وحمايتهم فهرب من المدينة وترك البلاد للفرس. وقد قتل الفرس آلافاً من الرهبان الأقباط وخرّبوا كثيراً من الأديرة.

وفي سنة 622 م تولى بطريركية الإسكندرية الأنبا بنيامين الذي عاصر الفتح العربي لمصر. وبعد تسع سنوات من بطركته عين هرقل سنة 631 م بطريركاً ملكانياً (ملكياً) إسمه كيرس وهو الذي اشتهر باسم المقوقس، وجمع لهذا البطريرك بين وظيفته الكهنوتية وبين وظيفة الوالي ليكون أقوى على قهر الأقباط وضمهم إلى مذهب القائلين بالطبيعتين. ويبدو أن هرقل لم يكن موفقاً في اختيار هذا الرجل الذي كان ضيق الصدر، فإنه لما عسرت عليه إستمالة المصريين إلى مذهبه المخالف اضطهدهم إضطهاداً رهيباً مما نفرهم منه في وقت كانت الإمبراطورية فيه محتاجة أشد الإحتياج إلى إسترضاء الأقباط بسبب حرج موقفها في حربها مع الفرس.

أما البطريرك القبطي الأنبا بنيامين فاختلفى هو وسائر أساقفة مصر جميعاً، وظل ينتقل بين الكنائس والأديرة دون أن يقع في أيدي الرومان. واستغل هرقل هذه الفرصة فأقام أساقفة من الملكانيين في بلاد مصر كلها من الإسكندرية إلى أنصنا، فنكلوا بالأقباط تنكيلاً شديداً.

ولكن هذه الحالة لم تستمر طويلاً إذ أتى عمرو بن العاص بجيوشه العربية إلى مصر، وفتحها سنة 641 م ولما استتبت له الأمور أعطى أماناً للأنبا بنيامين، فرجع إلى كرسيه في الإسكندرية بعد غيبة دامت ثلاث عشرة سنة، وبدأ يعيد إلى الكنيسة أولئك المسيحيين الذين ضغط عليهم هرقل في قبول قرارات مجمع خلقدونية، وصرح عمرو له بفتح الكنائس وإقامة العبادة فيها.

الاضطهادات العشرة

تؤرخ الكنيسة القبطية لشهادتها برقم الإضطهاد، وقد بلغ عددها عشرة: الأول : هو الإضطهاد الذي وقع على مسيحي الإسكندرية في عهد نيرون الملقب بالملك الدموي من سنة 65 إلى سنة 68 ميلادية، حدث هذا عندما اختطف الوثنيون القديس مرقس من كنيسة بوكاليا بالإسكندرية، وهجم الدهماء على المسيحيين فسلبوا أموالهم وأعملوا فيهم القتل.

وكان أول دم شهيد أريق على أرض مصر هو دم القديس مرقس وذلك في 30 برمودة الموافق 26 إبريل سنة 68 ميلادية ودفنت رفاته في الكنيسة التي أنشأها بالإسكندرية، ثم نقل جسده فيما بعد إلى مدينة البندقية.

الثاني : اضطهاد دوميتيان (81 – 96 م) الذي أمر باضطهاد أتباع المسيح، وذلك بعد أن خيل إليه أن أحد أقرباء المسيح سيأتي ويسلبه مملكته، ثم عنّ له أن يستدعى كل من يمت للمسيح بقرابة إلى رومه، ولما واجههم، وجدهم جماعة من الفقراء والمعوزين فأخلى سبيلهم، وسمح لهم بالعودة إلى بلدهم.

الثالث : اضطهاد تراجان (98 – 117 م) كان تراجان يخشى من التآمر على عرشه فأصدر سنة 99 م أمراً يمنع فيه الإجتماعات السرية، ولما كان

المسيحيون لا ينقطعون عن الإجتماع للعبادة، فقد أمر سنة 104 م باضطهادهم أينما وجدوا، وأخذ في استئصال قادة الشعب من رجال الدين، وممن استشهد في هذا الاضطهاد الأنبا كردونوس البطريرك الرابع من بابوات الكرسي الإسكندري.

الرابع : اضطهاد هدرينانوس (117 – 138 م) أباح هدرينانوس للرعاع أن يقتلوا المسيحيين دون أن يقدموا للمحاكمة مهما بلغ عدد الضحايا، وكان يرمى من وراء ذلك أن يمنحه الكهان الوثنيين لقب " حامى الوثنية الأعظم "، واحتج الكتاب المسيحيون على هذا التصرف غير القانوني، وكان لكتاباتهم صدى في بلاد الإمبراطورية، واضطر هدرينانوس إلى التراجع عن إجراءاته التعسفية.

الخامس : اضطهاد مرقس أوريليوس (161 – 180 م) كان متعصباً للفلسفة الرواقية، فأخذ يرغم المسيحيين على إعتناقها بقوة السلاح، وكان يخشى على سلامة الإمبراطورية من انتشار المسيحية، ولهذا كان يعامل المسيحيين بكل قسوة، ولم يفد احتجاج القديس ميليتون أسقف ساردس وأثيناغوراس الفيلسوف في منعه من الإستمرار في الاضطهاد.

السادس : اضطهاد سبتيموس سويروس (193 – 211 م) لم يكذب المسيحيون يتنفسون الصعداء في عصر كومودوس (180 – 192 م) حتى تولى الحكم سبتيموس سويروس خلفاً له ، فأمر على أثر ثورة اليهود بقتل كل من يدين بالمسيحية، وذلك بمرسوم أصدره سنة 203 م واستمر ابنه كراكلا (211 – 218 م) في تنفيذ ما بدأه أبوه، وكان الخطيب ليونيدس، والد أوريجانوس ممن استشهد في هذا الاضطهاد.

السابع : اضطهاد مكسيموس التراكي (235 – 238 م) أعلن سخطه على المسيحيين وبخاصة رؤساء الدين وأمر باضطهادهم.

الثامن : اضطهاد دكيوس (249 – 251 م) أصدر أمراً سنة 250 باستئصال المسيحيين وإرغام أتباعها على إعتناق الوثنية.

التاسع : اضطهاد فاليريان (252 – 268 م) أصدر أمراً سنة 257 بنفى الأساقفة من كراسيهم إلى جهات بعيدة، ولما رأى أن ذلك لم يؤثر في سير العمل في الكنيسة أمر باضطهاد المسيحيين وقتل كبار رجال الدير ومصادرة أموال المسيحيين، ومنع الفرسان المسيحيين من التمتع بكافة حقوقهم المدنية.

العاشر : اضطهاد ديوقلديانوس (284 – 305 م) كان أكثر الاضطهادات عنفاً، أثاره ديوقلديانوس سنة 303 حين أصدر مرسوماً بهدم كنائس المسيحيين وحرق كتبهم المقدسة، وأخذ يبطش بالأساقفة ويقتل المسيحيين. وكان هذا آخر الاضطهادات، إذ في سنة 312 م قرر قسطنطين (274 – 337 م) الاعتراف بالدين المسيحي في الإمبراطورية. وفي سنة 313 م وقع مرسوم ميلان الذي أباح فيه الحرية الدينية.

